

كنز المعارف

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و آله و صحبه و سلم تسليما
كنز المعارف¹

الحمد لله كما ينبغي لجلاله، والشكر له على كمال إنعامه وإفضاله، والصلاة والسلام على ينبوع النعم، ومعدن الفضل والكرم، سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى كل من والاه، وبعد، فيقول الفقير إلى ربه أحمد سكيرج، أمنه الله في الدارين في الحياة وبعد الممات، هذا بحول الله تولى أعنونه بكنز المعارف، أفيد فيه كل ما استفدته من غير تأثق في الخطاب، ولا تقيد بموضوع خاص في إيجاز أو إطناب، وإنما أكتب ذلك على حسب ما سرح لي ذكره خشية نسيانه، وقصدا لإفادة من وقف عليه، سائلا من المولى النفع لي ولمن نظر فيه بعين الرضا، ودعا لي بما يحبه لنفسه من الرحمة الدائمة والألطف الخفية والمغفرة التامة، فإن الدعاء ينفع في ظهر الغيب²، والله خزائن لا تنفذ بالإفناق، وهو سبحانه المرجو في كفاية ما أهم وما لم يهم، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه مدا الدوام.

رؤيا في صباح 15 شعبان عام 1334 هـ:

رأيت نفسي كأني بمراكش، واجتمعت فيها بجماعة من الأعيان ذوي شيبية منورة، ولم أكن أعرفهم، غير أنني قلت مظهرا لمعرفتهم هذا فلان وهذا فلان كأنني أعرفهم، ومن جملة من سميتهم منهم رجل ذو وجه منور وهياة جميلة، فقلت: هذا سيدي جعفر الكتاني المراكشي، فصاروا يتعجبون من ذلك، ثم شرعت في مدحه بقصيدة لم تتم، واستيقظت ومطلعها على حافظتي وهو:

علوت على أعلى العلا في المعالي وفقت وسدت في الورى كل عالم

..إه..

أقول استحضرت في هذه الرؤيا شيخنا العلامة الفاضل أبا محمد سيدي جعفر الكتاني الفاسي³، وأظهرت في الرؤيا المذكورة أنه غير المرئي، فلذلك قلت المراكشي، وشيخنا

¹ - هو من عداد كنانيشه القديمة، شرع في تدوينه بمدينة فاس، إبان عمله كناظر لأحباس فاس الجديد ما بين عامي 1332 هـ-1336 هـ موافق 1914م-1918م. ويظهر من مطلع عنوانه ومقدمته أن الغاية منه كانت منصبة على جمع غرر الفوائد والمعلومات، سواء منها ذات الصلة بالميدان العلمي، أو بالأدب والأخلاق والتصوف، مع ذكر بعض الأشعار اللطيفة والمواعظ، إلى جانب بعض التجربات الإقتصادية التي يُرجى أن تعود بالنفع والفائدة على عامة الناس.

² - إشارة للحديث الصحيح المروي عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلا قال الملك: ولك بمثل. رواه الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الذكر والدعاء). باب فضل الدعاء للمسلمين رقم 6877.

³ - سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذا الكتاب

المذكور هو رجل كبير السن والقدر، كَانَ من أفاضل علماء القرويين الذين بالغوا في إفادة العامة والخاصة، وقد حضرتُ بين العلمين لمجلس وعظه، وهو على كرسية المرتب فيه، كنت أقصده حالة توريقه من جملة المستمعين، وكنت أتأسف على أن فاتني الحضور بمجالس تدريسه، حيث إنه كان يترك التدريس في ذلك الإبان، وأعلل نفسي بأنه حيث فاتني تدريسه فإنه لم يفتني بحمد الله حضور مجلس توريقه والسَّماع من لفظه ووعظه المؤثر في النفوس، فهو بذلك من شيوخنا الجلة قدس الله روحه في الجنة، وقد صدحت القريحة في رثاه هنا فقالت:

وَاصْفَرَّ لِلنَّفْسِ مِنْكَ الْيَوْمَ يَانَعَهَا
وَالْيَوْمَ عَيْنُكَ قَدْ جَرَتْ مَدَامِعَهَا
صَبْرًا فَأَوْجَعَتْ مِنْكَ النَّفْسَ فَاجْعَهَا
مَحَمَّدَ جَعْفَرَ لِلنَّفْسِ بَاخِعَهَا
جَنَاتِهِ رُوحَهُ وَأَزْدَانَ طَالِعَهَا
بِهِ مِنَ الْجَنَّةِ الْعَالِيَا مَوَاضِعَهَا
وَفِي الْعِلَا أَزْدَهْرَتْ بِهِمْ شَوَارِعَهَا
فَرْدًا وَكَمْ مِنْ نَفُوسٍ فَهِيَ نَافِعَهَا
بِهِ الصُّدُورُ بِمَا مِنْهُ يَطَاوِعَهَا
بِهِ تَدَيَّنَ عَاصِيهَا وَطَائِعَهَا
وَلَا فُضِيلَةَ إِلَّا وَهوَ جَامِعَهَا
فِي الْفَضْلِ غَالِيَةً سِوَاهُ بَانِعَهَا
بِهِ وَلَوْلَاهُ لَمْ تَشْرُقْ مَطَالِعَهَا
وَلَمْ يَخْبَ فِيهِ لِلنَّفُوسِ طَامِعَهَا
فِي أَنْفُسٍ غَيْرِهِ بِالْبَخْلِ مَانِعَهَا
وَلَا حَمِيدَةَ إِلَّا وَهوَ زَارِعَهَا
وَلَا كِرَامَةَ إِلَّا وَهوَ وَأَزْعَهَا
عَلَيْهِ حَتَّى يِعْمَ الْخَلْقَ وَأَسْعَهَا

عَلَامَ عَيْنِكَ قَدْ فَاضَتْ مَنَابِعَهَا
وَلَمْ تَكُنْ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ فِي جَزَعِ
مَا ذَاكَ إِلَّا لِأَمْرٍ لَا تَطِيقُ لَهُ
كَأَنَّ مَا بِكَ مِنْ فَقْدِ الْإِمَامِ أَبِي
مَهْلًا عَلَيْكَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدَّسَ فِي
فِي تَكُنْ أَنْتَ تَبْكِيهِ فَقَدْ فَرَحْتَ
لَقَدْ تَلَقَّيْتَهُ بِالْهَنَاءِ مَلَأَتْكَ
لَمْ لَا وَقَدْ كَانَ فِي عِلْمٍ وَفِي عَمَلٍ
أَحْيَى عُلُومًا وَأَقْنَى الْجَهْلَ وَابْتَهَجْتَ
وَكَمْ أَزَالَ عَنِ الْعُقُولِ مِنْ حَجَبٍ
فَلَا مَزِيَّةَ إِلَّا حَازَ جِيدَهَا
بِالْإِرْثِ حَازَ كَمَا لَا وَاشْتَرَى رَتْبًا
أَعَارَ لِلشَّمْسِ نُورًا مِنْهُ فَابْتَهَجْتَ
مِنْ مِثْلِهِ كَانَتْ الْأَقْدَامُ تَقْصِدُهُ
فَكَانَ مَانِحَ فَضْلٍ جَلَّ مَوْقِعُهُ
فَلَا كِرَامَةَ إِلَّا وَهوَ كَاسِيهَا
وَلَا فَضَائِلَ إِلَّا وَهوَ حَاصِدَهَا
فَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يَدِيمَ رَحْمَتَهُ

فائدة من فوائد السيد أبي بكر المصري¹

وهو من الأمور التي كان يستعملها للحضرة الحسنية أيام المصيف لاستخراج الأرياح المزمنة المعكوسة كالفولنج وشبهه، وذلك أن يؤخذ قدر من المزهر المعروف عندنا بالمغرب بالزريق، وبالإسكندرية برأس الهدد، ويوزن مع أغصانه ويطبخ ثم يجعل في مائه بعد

¹ - أبو بكر المصري المكاوي، فقيه مشارك مطلع، له معرفة واسعة بعلم السيمياء والتنجيم، كان السلطان مولانا الحسن الأول يجله ويتلمذ له، خصوصاً في مجال علم الحروف وما إليها، والمعروف عن هذا الشخص أنه مشرقي الأصل من بلاد الحجاز، وقد استوطن مدينة فاس ولقي بها ترحيباً من طرف أهلها، إلى أن أدركته المنية بها عام 1336 هـ - 1918 م. ودفن بضريح الشيخ المزالي داخل باب عجيصة. أنظر ترجمته في إتحاف المطالع، لابن سودة 2: 420. موسوعة أعلام المغرب 8: 2902.

الطبخ ثلاثة أمثاله سكر، لكونه مرا، ويعقد شرابا، ويؤخذ منه أكلا وقت الحاجة معلقة تحل بماء مطلق، ويشرب، فهو نافع كاف لجميع الأرياح. قال: والبري أحسن من البستاني، لا سيما النوع الذي على أوراق نوره صورة ألف، قال: والقاعدة في كل ما هو مر أن يجعل فيه ثلاثة أمثاله سكر، فإن خفت المرارة فمثلاه، ثم مثل لغيره، وهذا الزهر هو الذي إذا أكله المهر يخرج منه البادزهير، وهو أنواع، من أنواعه النوع المعروف بالحكم الأصفر.

فائدة

فائدة النوم راحة الحواس، وأول ما تنام: القوة الباصرة، ثم تتبعها السامعة، ثم ما بقي من الحواس الخمسة، ثم الدماغ، فإن نامت الحواس دون الدماغ رأى الإنسان الأحلام، فالنوم التام هو ما لا أحلام معه.

فائدة في الطبخ بلا نار

السر في ذلك وضع القدر التي فيها الطبخ على النار حتى تبندئ تغلي، ثم رفعها عن النار ووضعها حالا في صندوق فيه هشيم أو تبن أو ما أشبه ذلك، وإغلاق الصندوق بضبط، ويجوز لف القدر بصوف أو غيره، والغاية حفظ الحرارة التي في القدر، فينضج الطبخ كأنه على النار، غير أنه سيشغل بذلك وقتا أطول من الوقت الذي يشغله على النار، بما يقتضي إنضاجه نصف ساعة على النار يقتضي ساعة في الصندوق، وهذه الطريقة توافق الرز والبقول التي لا تحتاج إلى نار قوية، فالنار الواحدة كافية لطبخ أشكال كثيرة.

حفظ البيض من الفساد

لحفظ البيض طرائق كثيرة مختلفة، وقد أراد بعضهم أن يجرب تلك الطرائق ليرى أيها هو أفضل، فجمع بيضا كثيرا وعالجه بحسب وتركه من أول حزيران إلى آخر شباط، ثم عاد ففحصه فوجده كما يلي:

- من 100 بيضة غطست في الماء المالح 100 فاسدة
- من 100 بيضة لفت بالورق 80 فاسدة
- من 100 بيضة حفظت في النخالة 70 فاسدة
- من 100 بيضة وضعت في محلول الشب 50 فاسدة
- من 100 بيضة حفظت في الرماد 20 فاسدة
- من 100 بيضة حفظت في دقيق الفحم 20 فاسدة
- من 100 بيضة حفظت في ماء الكلس، لا شيء فاسد

وبما أن الطريقة الأخيرة هي أحسن الطرائق فضلا عن أنها قريبة المتناول على كل الناس، ولا تكلف نفقة، فبيانها ضع في وعاء عشرة كيلوغرامات من الماء العادي، ثم أضف إلى الماء نصف كيلوغرام من دقيق الكلس المصفى، وامزج الكلس بالماء مزجا شديدا، واترك المزيج أربعين ساعة، ثم عد إليه تجد منهما من الكلس قد رسب في قعر الوعاء، فقطر الماء قليلا قليلا إلى وعاء آخر، ثم ضع فيه البيض واجعله في مكان رطب قليل

الضوء، وبهذه الطريقة يحفظ البيض ستة أشهر، بشرط أن تكون البيضات المقصود حفظها جديدة.

نصائح لحفظ البيض من الفساد

خذ جزءاً من القفونة وهي صمغ الصنوبر، أو أحد الصمغ الموجودة، ودقه ناعماً، وضعه في عشرة أجزاء من السبيرتق أو العرق مدة يومين، فيصير صالحاً لدهن ظاهر البيض بالشعرية الفرشاة، ومتى جف كان دهاناً يحفظها من الفساد طويلاً.

ادهن البيض بمادة شحمية أو بزيت كزيت بزر الكتان، فتحفظه شهراً. خذ مشبع عشرة أجزاء الكلس المطفي، وجزء من السكر، وغطس البيض فيه مدة أسبوعين. خبئ البيض في ناعم الرماد أو النشادر أو دقيق الفحم، فيحفظ طويلاً. اهـ

رؤيا سيدتنا الوالدة

رؤيا سيدتنا الوالدة لوالد والدنا البركة سيدي الحاج عبد الرحمان سكيرج¹ بعد وفاته: رأت الوالدة سيدنا الجد المذكور بعد وفاته مستلقى على قفاه كأنه في فراش أعد له لمباشرة عينيه، فرأت عينيه تفوران، فتكلمت معه ثم تذكرت أنه توفي، فقال له يا سيدي كيف وجدت الحال؟ فقال لها مجيباً: أما ومن خير عند الله، فاستيقظت من الفرح الحاصل لها بهذه البشارة، وكانت تقول: من الوقت الذي قال لي ذلك لم يبق عندي خوف من الموت، واستوت عندي الحياة والممات.

عمامة الشيخ التجاني رضي الله عنه

كانت عمامته قدس سره على ما بلغنا على لسان الثقة من الثوب المعروف بالمطيب، وهذا الثوب كاد أن ينقطع، وهو من الكتان الغليظ، ذات عشرة أدرع، ويكورها على قلنسوة حمراء من تحتها قلنسوة بيضاء، ويغرز طرفها بإبرة حتى لا تتحل، ويلف عليها حبلاً رقيقاً من الوبر على عادة أهل الشرف الوطني²، وقد تبركت بحبل من الحبال التي كان يلف بها عمامته، وجعلته على رأسي، ولويته على عنقي في وسط جماعة من الإخوان، من جملتهم محبنا الأعز المرحوم السيد الحاج محمد فتاح بن المدني القباج³، وهذا الحبل كان على ملكه، وقد أدرجه في عنقي وعنقه، وهذا الرجل من الفانيين في محبة الشيخ رضي الله عنه، وقد

¹ - سبق التعريف به في الجزء الأول من هذا الكتاب.

² - في كناش العارف بربه سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي، قال الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح: كان سيدنا الشيخ رضي الله عنه يخط عمامته من وراء لئلا تشغله في الصلاة إذا انفكت. وهي شقة كاملة من الثوب الرفيع. قال العلامة سكيرج: وهي عند المقدم الآن من النوع المسمى بالمطيب، ومقدار طولها عشرون ذراعاً.

³ - ترجم له العلامة سكيرج في كتابه الرحلة الحبيبية الوهرانية، وقال فيه بعد كلام: ويكفيك فيه أنه من أبناء خدام الحضرة التجانية من السادة أولاد القباج. ودارهم دار الشيخ رضي الله عنه في الحضرة الفاسية، ينسبون إلى الشيخ رضي الله عنه بجميع ما لهم من أولاد وأهل وفرع وأصل، قد لحظتهم عين العناية فكانوا من خاصة المنتسبين لهذه الحضرة التجانية، حيث استغرقوا أعمارهم في حب الشيخ رضي الله عنه وحب من انتسب إليه الخ... انظر الرحلة الوهرانية للعلامة سكيرج ص 19.

أفضى به الإستغراق في المحبة إلى الجذب الذي اتّصف به آخر عمره بنحو أربع سنين، وقد توفي رحمه الله عام 1333هـ، وحول هذا المقام أنشدت مخاطبا لسيدنا رضي الله عنه وأرضاه وعنا به¹ :

رغما على أنف من يراه منصرما بها أعز كرامة لدى الكرما فقلت أقصى المرام منك والنعما يا سيذا كل من به احتمى سلما من فوق هامة فضل قد علت همما بنيل سر بذاك أمره عظما حبلي توثق في حبل بك انبرما به حبالى وكن لي راعيا ذمما سواك دنيا ولا أخرى لدى العلما ولى الولاية في الدارين قد ختما لكل أمر مهم كلما دهما من بحر جودك وهو يكشف الغمما بنيلك المبتغى طبق الذي علما أل وصحب ومن به قد احترما	حبلي بحبك لا يزال منبرما ومنك أسديت لي أجل مكرمة أدنيته منك في سر وفي علن مولاي يا أحمد بن سالم سندي ربطت رأسي بحبل كنت تربطه وقد تيقنت أن السعد ساعدني وذاك طبق اعتقادي فيك يا أملي بالله لا تقطع الحبل الذي اتصلت فقد بلغت مقاما ليس يدركه ألست أنت إمام الأوليا وبك الم وقد رجوتك في دنيا وآخره وحاش أن لا أنال فوق أمي والمصطفى لك قد أدى ضمانته صلى عليه الإله دائما وعلى
---	---

وكان رضي الله عنه يجعل عليها طيلسانا شالا يسدله على رأسه ويمر به تحت حنكيه وعنقه الشريف، وربما لف عليه حبله الوبري وربما لف الحبل فوق لية حائكه، وكان رضي الله عنه يجعل في بعض الأحيان حرزا بين ليات عمامته لسر باطني يقصده بذلك، ومما بلغنا أنه رضي الله عنه وضع عمامته يوما بجانبه، فأنتهز الفرصة أحد الخاصة من الأحاباب بوضعها على رأسه تبركا، فأصابه في الحين صداد كبير، فالتقت الشيخ وقد رآه فقال له: أذيت نفسك، فصار يتملق بين يديه في كشف ما نزل به، فدعا له فحفظه الله من استصحاب الألم، وما ذاك إلا للسر الذي حملته من ملابس الرأس الشريف.

برنوس الشيخ رضي الله عنه وكساؤه

كان الشيخ رضي الله عنه يلبس سلهاماً من الوبر في بعض الأحيان، وفي بعض الأوقات يلبسه من الصوف، يدخله في عنقه، ولا يجعله على عاتقه من غير أن يدخله في عنقه،

¹ - قال العلامة سكيرج : ومما وقع لسيدي الحاج علي أملاص مع سيدنا رضي الله عنه ما حدثني به بعض أحفاده أنه دخل على سيدنا رضي الله عنه والحجام يحسن له، ورأى عمامة سيدنا رضي الله عنه فوق الأرض منزلة، فأخذها وجعلها فوق رأسه ليتبرك بها، فبمجرد جعلها عليه أحس بخروج عينيه من موضعها من فرط ما حملته من السر، لمسها لرأس سيدنا رضي الله عنه، ثم إنه جعل يديه عليها وصار يصيح، فرآه سيدنا رضي الله عنه، فقال له : ما حملك على هذا ؟ ونزعها من رأسه، وصار يطلب له من الله اللطف لئلا تتلف عيناه من فرط التجلي الذي حصل له بسبب ذلك، وبقي مريضا مدة إلى أن شفاه الله تعالى. انظر كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 272.

ويضرب بطرفه على رأسه لتغطية وجهه عندما يريد أن لا يرى أحد وجهه، وبالأخص عند مروره بين النسوان وقت زيارته ووعظه لهن¹.

ولون برنسه البياض، وكان يتخيل لي أنه أسود، ولا يبعد أن يكون عنده، وله برنس كذلك من صبغة الرحمان، وأما لون الوبر فهو معروف، وكان يلبسه سفرا وحضرا، ولباس البرنس من لباس السلف الصالح، ففي العتبية قال مالك : سمعت عبد الله بن أبي بكر وكان من العباد وأهل الفضل يقول: ما أدركت الناس إلا ولهم ثوبان، برنس يغدو به، وخميصة يروح بها، قال القاضي أبو الوليد ابن رشد : البرانس ثياب في شكل الغفائر عندنا، مفتوحة من أمام، تلبس على الثياب في البرد والمطر، وأما الخمائص فهي أكسية من صوف رقاق معلمة وغير معلمة يلتحف بها، كانت من لباس الأشراف في أرض العرب الخ ... كما كان له رضي الله عنه كساء يلتحف بها، وكان يعقد طرفها بحزامه حتى لا تتحل عن كتفه، وكانت من النوع الرفيع والسدي الرقيق المتناسف في عمله للأكابر.

نعل الشيخ رضي الله عنه

كانت نعل سيدنا رضي الله عنه من النعال المعروفة عندنا بقاس بالنعال المشيطة، وهي الجنس الرفيع من النعال في وقته، تشابه النعل الشريف في الهيئة، فكان رضي الله عنه يلبسها مدة قليلة ثم يلتمس الأصحاب منه أن يتحفهم بها، فيلبس بدلها جديداً، وما رئيت في رجله الشريف نعل بالية، وذلك حالة ركوبه ومشيه راجلا، مما ازداد به حساده عجا من الترفه الذي لم يظفروا منه بأقل قليل، وقد تشرفت بالتبرك بنعله اليسرى عند محبنا الأعز السيد أحمد بن الحاج محمد بن المدني القباچ². وباليمنى عند عمه المحب الصادق السيد محمد فتحا القباچ، وتشرفت بالنعل الشريف التي عند الشريف الجليل سيدي إبراهيم بوطالب.

¹- حول هذا الموضوع ذكر العلامة سكيرج في كتابه كشف الحجاب ما نصه : وكثيرا ما كان سيدنا رضي الله عنه يدخل لدار صاحب الترجمة (عم العباس بن الغازي) فيجتمع عليه أهله للزيارة، فيضع سيدنا رضي الله عنه طرف سلهامه على وجهه لئلا يرى أجنبية، فإذا أكثرن عليه من طلب الدعاء وتقبيل يديه يقول لهن : بركه بركه، بمعنى يكفي يكفي، يأمرهن بالكف عنه، وكذلك كان رضي الله عنه يفعل في عشية الجمعة بالزاوية المباركة إذا كان خارجا منها، فإنه يذهب وحده للموضع الذي كان جعله لهن، لئلا يزدحم بباب الزاوية فيحصل بذلك الضرر الديني من ازدحام النساء والرجال في الدخول والخروج، فإذا ذهب لناحيتهن يجعل على وجهه طرف سلهامه، فيزدحم عليه للزيارة، فيدعو لهن بصلاح الأحوال دنيا وأخرى ويعظهن ويذكرهن إلخ ... أنظر كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 311.

²- أحمد بن الحاج محمد بن المدني القباچ، فقيه جليل، من مواليد مدينة فاس عام 1290هـ، وبها أخذ العلم والمعرفة، ثم انتقل لمدينة وهران عام 1320هـ، وذلك بقصد مزاولة التجارة بها، وقد توسع العلامة سكيرج في ترجمته في كتابه الرحلة الحبيبية الوهرانية ص 21-32. وكذلك في كتابه رياض السلوان ص 21.

وكنت عملت في ذلك أبياتا ذكرتھا في الرحلة الوهرانية¹، وتبركت بها عند أولاد السيد ابن التاج بوجدة حيث كنت بها قاضيا، وتبركت بها عند الأمين الكاتب بدار المخزن السيد علال بن حيون²، ولم أعرفها عند غير هؤلاء.

وكتب لنا محبنا الأديب الغطريف السيد الحاج الطيب عواد السلوي³ بعدما استعار مني جزءا من تاج العروس:

يا من به تسلو النفوس
لا زلتُ نشوانا بما
وأفاقي من نشوتي
عن الفها وعن العروس
دونته لا بالشمسوس
من رمت من تاج العروس

وقال في مدح سيدنا الشيخ التجاني رضي الله عنه:

قالوا مدحت الشيخ قلت بديهية
وغدا البليغ أخو الفصاحة باقلا
أوما علمت بأنه الغوث الذي
كل اليراع عن اختطاط مناقبه
لا يستطيع الدهر وصف مشاربه
سعد الذين تمذهبوا بمذاهبه

رائية الإمام الساحلي رضي الله عنه:

أيا طالبا يبغي الترقى بالذكر
لئن كنت بحاثا عن المسلك الذي
أصخ نحو إيضاح أتى لك بالدر
سلكته فاسمع ما أنص من الأثر

¹ - انظر الرحلة الحبيبية الوهرانية للعلامة سكيرج ص 31. وقد قال في آخر هذه القصيدة :

لله من شيخ يفوز مريده
إنني لأحمد خدمتي لجنابه
إن كان يوما فاتني منه اللقا
فأنا الذي في حبه أصبحت لا
إن لم أكن قبلت أخصم رجليه
وبموطئ القدم الشريفة كحلت
وبذاك أمل أن أفوز بمطلبي
وأكون ملحوظا بعين عناية
متوسلا في ذا بشيخي المرتضى
وبجاه ما قد نال من خير الوري
فعليه خير تحية لا تنقضي

² - الكاتب الفقيه السيد علال بن عبد الرحمان بن حيون الفاسي، من مواليد مدينة فاس عام 1284هـ، تقلب في مناصب مخزنية بارزة منها أمين للأمالك والمستقادات المخزنية برباط الفتح. وبعدها عين كاتباً بوزارة المالية بالأعتاب الشريفة. وهو حفيد السيد الحاج محمد بن حيون أحد أصحاب وأحابيب الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، انظر ترجمته في رياض السلوان للعلامة سكيرج ص 105.

³ - سبق التعريف به في الجزء الأول من هذا الكتاب.

هو المسلك العالي الرفيع مكانه
طريق سريع الفتح سهل مرامه
ويرقى به الإنسان في عالم العلا
إلى حضرة التقديس دون تكلف
تفوق به الخدّام في كل مشهد
براهينه كالشمس دون سحابة
وليس لذي الإنكار في ذلك مدفع
طريق قويم لاح بدر كماله
تضمن أذكارا تردد خمسة
فأولها استغفارنا لإلهنا
وثالثها الإثبات تهليل قائل
وخامسها الأفراد إفراد الله ربنا
وصلّ به ذكر المصطفى وإلهه
فما فاز من قد فارق البدر لمحة
تعلق بأذيال الذين تفرغوا
فما فارق الصديق ذكر محمّد
وما نال تصديقا بغير حبيبه
وخذ جملة الأذكار واكتب سطورها
ورتب فصول الذكر لا تك ناقصا
وإياك أن ترقى بغير علامة
ولا بد من شيخ إمام وقدوة
فللذكر أسرار تلوح لأهلها
وبالصدق والإخلاص يشرق نورها
وما ترتقي الأنجاد في ثمراتها
وإن شروط الذكر لا شك خمسة
فتركك للإسراف في الأكل واحد
وثاني شروط الذكر إينار خلوة
ومن بعدها استقبال بيت إلهنا
وخامسها يا مظهر الجد مقصد
ولا بد في هذا من إعمال سبحة
كما أن سد العين في السورد لازم
فحافظ على الأوراد ما دمت جاهدا
وقسم على وقتين وردك يا فتى
وخذ نصفه بين العشاءين خاليا
وصن أذنا تصغى لقول لائمه
وخذ في سبيل الصمت عن كل قاطع
فما الربح إلا في مخالفة الهوى
وما نفذ السباق إلا بخمسة

على طرق الإرشاد ناهيك من فخر
يزحزح أدناس الهواء عن الصدر
على السنة البيضاء والمهيّع البر
إلى منزل الإيصال نايا عن الفخر
هنيئا لهم غاصوا على درر الدر
لقد حقّ بالتأييد حقا وبالنّصر
وشد سهام الظفر في حالة النكر
تبلغ للجنات تاتيئك بالأجر
أتينا بها نقلا عن السادة الغر
ومن بعده ذكر المشفع في الحشر
ومن بعده التنزيه يتلى على الإثر
فكن واعيا للخمس واحضض على الستر
وإياك أن تنسى نبيك في الذكر
وهل فاز إلا من تمسك بالبدر
لخدمة هذا المصطفى كأبي بكر
وإن كان في الأفراد كالكوكب الدرّي
فدع قول بدعي تدنس بالوزر
بكف قبول الحق في صفحة الصدر
لترتيبها مهما دعيّت إلى النشر
فتضطرب الأقدام منك على الفور
يرقيق تدريجا على مقتضى الخبر
وتظهر إعلانا لمن عمّ بالطهر
فخذ في سبيل الصدق تنبئك بالسّر
سوى بدوام الذكر فادأب على الذكر
سأشرحها في النظم نصا كما أدري
فدونك جنب ما يؤول إلى الضر
ففي خلوات الذكر يربح ذو تجر
ورابعها استعمال ذلك على طهر
عليه بناء الذكر في مجلس الذكر
تنظمها وترا فحافظ على الوتر
وإلقاء رأس النذل في وسط الحجر
وخذ يا أخي تلقاء واعية اليسر
فذلك مخصوص بمبتدئ يسري
وخذ نصفه الثاني على أثر الفجر
وجالس خيارا لا يميلون للشّر
فإن كنت لا تقوى فجاهد على الصبر
وما الجد إلا مالك النفس بالقهر
بها نهض السباق فانهض على الإثر

فأولها منع لنفس غيبية
كذلك غض العين عن كل قاطع
وإشغال قلب في مراقبة الذي
يليه على التدرج تزيين ظاهر
وأكل حلال فهو سر طريقنا
فإن قلت لا يلفي حلال بموضع
ولكن من بعد الحراسة دائماً
وإياك أن تبسط يمينك أخذاً
وكن راضياً بالفقر لا تك أكثر
فإن رسول الله سراً وجهه
فكن تابعاً للمصطفى في فعاله
فما صحت الدعوى بحب محمد
فأية صدق المولعين بحبه
إليك ينادي الساحلي تضرعا
وعفوك أرجوه لأمة أحمد
وأفضل تسليم عليه ورحمة

إه..

من الذخيرة¹ هذه الأبيات أسفله:

عن الشهوات الداعيات إلى الخسر
كما بين الرحمان في محكم الذكر
يرى حضرة الإخفاء في منزل السر
بسنة مختار دعانا إلى الأجر
فجاهد على كسب الحلال مدى الدهر
فكل أكل محتاج عديم ومضطر
وبعد اجتهاد منك في حيز الحظر
لتحفة خوان وإعطاء ذي جور
وجرد ثياب الحرص فيها على الظهر
رمى زهرة الدنيا ومال إلى الفقر
وأصحابه الأخيار والأنجم الزهر
لمن خالف الهادي ومال عن الأمر
مساعدة المحبوب في السر والجهر
لتشرح لي صدري وتغفر لي وزري
عليه صلاة منك تنرى إلى الحشر
وأصحابه أهل السيادة والفخر

بل هو كالياقوت بين الحجر
أبهى من البدر ونور العُرر
أبهى من الشمس ونور القمر
مصباح نور في الوجود انتشر
غرة فجر لاح بين الطرر
شقائق النعمان بين الزهر

محمد بشير لا كالشعر
محمد بشير لكننه
محمد بشير لكننه
محمد بشير لكننه
محمد أبهى وأجمل من
محمد أبهى وأجمل من

¹ - ذخيرة الغني والمحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج، من تأليف العلامة الصوفي الشهير سيدي محمد المعطي بن صالح الشرقي، تقع في سبعين جزءاً، قال في مطلع جزءها الأول ما نصه: لما رأيت ما في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من الفضائل والخيرات، والبشائر والأنوار والشوارق ولوائح المسرات، ووقفت على ما في كتب القوم من غرر الصلوات، ونفائس التحيات، حركني حامل الحب الذي لا يُردّ واردة، وجذبني عامل الشوق الذي لا يكتم شاهده، أن أدلي دلوي بين المحبين المادحين، وأرسم شكلي في توقيعات المحبوبين المقربين. إه..

واستمر في تأليفه لأسفار هذه الذخيرة مدة تناهز عشرين سنة، إذ لم ينتهي منها سوى قبيل وفاته بقليل، وفي حق هذا الكتاب وصاحبه يقول بعضهم: امتزجت فيه محبة النبي صلى الله عليه وسلم بلحمه وعظمه، وشعره وعروقه ودمه، وقال في تقرّيبها بعض علماء المشرق:

العرب شيء نفيس ولي عليه أدله
الشمس تغرب منه ومنه تبدو الأهله

فرائد المرجان بين الدرر
واسطة العقد ونور البصر
وبهجة النفس وروح الصور
فرد وما مثله حسنا ظهر
روحاني بشر لا كالبشر
شمس وما هب نسيم السحر
جامعة الورق وفاح الزهر

محمد أبهى وأجمل من
محمد فذ العلا والبهى
محمد غرة لوح الهدى
محمد بين الورى جوهر
محمد نوراني ملك
صلى عليه الله ما طلعت
والآل والأصحاب ما غردت

ومن رسالة وجهتها للسيد الحجاز بن مدثر ابراهيم الحجاز¹ بعد كلام:

وقد ألقيت طلبكم بين يدي من لا يرد السائل ولا يبخل، فعسى أن يجيب وقد أجاب بلا شك وفعل، ففي الحديث القدسي: أنا عند ظن عبدي فليظن بي ما شاء². نعم، إن بروز المظنون للعيان منوط بأوقات لا تتعدها لحكمة اقتضتها المقادير، ولو كشف الغطاء لرأى الطالب مطلوبه مقبلا بحركة إذا وزَّنها وَقَدَّرَهَا تحقق أنه سيصله في الوقت الذي لا محيد عنه ولا خروج عنه البتة، وقد تطوى المسافة لبعض أهل الخصوصية طيا في الزمان والمكان، ولا يبعد أن يكون لكم الحظ الأوفر من هذا المشرب بالدعاء لكم في ظهر الغيب بما لكم من حسن الظن، ولا عجب في فتح باب القبول، بتعجيل قضاء المأمول، وبلوغ السؤل في الوصول، غير أن الحكمة الربانية رتبت الأمور وأناطتها بأسباب لا بد منها، والتوفيق للعمل عليها من قبيل الأخذ باليد، فتحرك يا ولدي حركة العبد الذي لا يعتمد عليها، واعمل بها فيأتيك المطلوب طبق ما تطلبه. ألا ترى أن العلم اللدني فإنه يرد من الحضرة القدسية على مورده بوارد الإلهام، ولا بد فيه من تقدم اجتهاد نفس بطلب، ولو بلا إخلاص في العمل، وإن كان السر في الإخلاص

كم ربي في أصحابه من العجب

وإن سر الله في صدق الطلب

نعم لا يوجد العمل إلا بحال، ولا حال إلا بالعلم لأنه:

العلم ينتج حالا وهو للعمل

كل المقامات عن ثلاثة صدرت

يأتيك من حسن إلا بنسل علي³

والحسن في الأصل حسن في النتائج لا

ولا بد في العلم من حركة، وبتعاطي مقدماته وآلاته بقريحة ذات كد وإحاح، ليحصل النجاح، وقد قيل قديما:

¹- سيق التعريف به في الجزء الأول من هذا الكتاب.

²- أنظر صحيح البخاري (كتاب التوحيد) باب قول الله تعالى: ويحذركم الله نفسه. رقم 7239. صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء). باب الحث على ذكر الله تعالى. رقم 6756.

³- البيتان للعلامة سيدي عبد الكريم بنيس، قالهما ضمن نظمه للحكم العطائية المسمى: الواضح المنهاج، في نظم ما للتاج. ورقم هذين البيتين 140 و141.

أخلق بذِي الصبر أن تقضى حوائجه

وَمُدْمِنُ القرع للأبواب أن يلجا¹

و قد نصح العربي منصوحه في قوله:

اطلب ولا تضجر من مطلب
أما ترى الحبل بتكراره
فأفة الطالب أن يضجرا
في الصخرة الصماء قد أثرا²

فأقبل على طلب العلم بوجه القبول حتى ترى القابلية فيك متمكنة، ولا يهيك ما يتراءى لك في بادي الأمر من صعوبة التحصيل لمعقول أو منقول، فلتحصيل فائدة واحدة في كل يوم أحب إليك من حمر النعم، والعلم كما علمته إن أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإن أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، هكذا قالوا، ولكن نقول لا يهولك هذا، فإنك إن أعطيت العلم بعضك أعطاك منه ما لم يعطك الجهل، فحسبت من العلماء وحشرت في زمرتهم، فكن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك³، ولا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل، فلا بد من أن تلقى دلوك مع الدلاء لأنه:

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه
وليس عليه أن يساعده الدهر⁴

وفي طلب أهل الدنيا لدنياهم عبرة لطالب العلم مع أن علياه أعلى من علياهم (فارباً بنفسك أن ترعى مع الهمل⁵) وأقبل على ما يغنيك بحسن العمل تتل فوق الأمل، فهم يتناقسون في الدنيا

¹ - من أبيات للشاعر محمد بن حازم بن عمرو الباهلي، أحد شعراء العصر العباسي، قال في مطلعها:

ماذا يكلفك الروحات والدلجا
البر طوراً وطوراً تركب اللجا
كم من فتى قصرت في الرزق حظوته
ألفيته بسهام الرزق قد فلجا

² - ذكر هذين البيتين صاحب كتاب كشف الخفاء ومزيل الإلباس، عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس (حرف العين) عند حديث: العلم في الصغر كالنقش في الحجر. رقم 1557. قال فيه: قال ابن الغرس: لكنه قد ثبت في الكبير بالتكرار الكثير (يعني طلب العلم وحفظه لدى الشخص الكبير المسن) وشاهده قول القائل:

اطلب ولا تضجر من مطلب
أما ترى الحبل بتكراره
فأفة الطالب أن يضجرا
في الصخرة الصماء قد أثرا

³ - إشارة لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أَعْدُّ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك. رواه الدارمي في سننه (كتاب النبي صلى الله عليه وسلم) باب في ذهاب العلم رقم 253.

⁴ - وقفت على تشطير جميل لهذا البيت من طرف الشاعر محمد الهلالي صاحب المنظومة، ونصه:

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه
وحقا عليه أن يسلم للقضا
ويضرع للباري إذا مسه الضر
ودامت له النعماء وانجبر الكسر
وإن صدَّه المقدور كان له العذر
وإن صدَّه المقدور كان له العذر

⁵ - هو الشطر الثاني من آخر بيت من قصيدة لامية العجم، للحسين بن علي الطغراني، وتمام هذا البيت كالتالي:

قد رشحوك لأمر إن فطنت له
فارباً بنفسك أن ترعى مع الهمل

ببذل نفيس أنفسهم، فكيف لا يبذل العاقل نفسه في تحصيل ما هو أفضل، ويحيى به بقدر ما حصل:

أخو العلم حي خالد بعد موته
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى
وأوصاله تحت التراب رميم
يُظنّ من الأحياء وهو عديم¹

ولستُ بحاض عليك في الإعراض عن تعاطي الدنيا بالأسباب، والدخول على العلم من كل باب، حتى يكون تعاطيه مانعاً لك من نصيبك منها في الظاهر، فتكون عالية على الناس

وإنما رجل الدنيا وواحد
من لا يعول في الدنيا على رجل²

والله يقول "ولا تتس نصيبك من الدنيا"³، كيف لا وهي مطية للآخرة، ولكن كن من الشره وشرها على حذر، ولا تمنن تستكثر، وقد كان الصحابة يحترفون، وإن الله تعالى يحب العبد المحترف، ويكره البطال، وقليل العيش مع الراحة واطمئنان الصدر أفضل من التشوف للاستكثر، فمن لم يقنع لم يشبع.

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد إلى قليل تقنع⁴

وأحسن تجارة للشخص تعاطي ما لا يصير به تحت سيطرة الغير، والحر لا يرضى بما يوقفه في الضير وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، فلا تبع مروءتك بأجرة استخدام مع من لا يرعى حرمتك، وخير الحرف ما واثاك وأثاك بجلال ولو قل، والله المسؤول أن يلهمك رشداً، ويبلغك في الدارين صدقاً.

إهـ

¹ - البيتان للشاعر العربي الأندلسي عبد الله بن محمد المشهور بابن السيد البطلوسي.

² - هو البيت الثامن والأربعين من قصيدة لامية العجم للحسين بن علي الصغرائي.

³ - سورة القصص، الآية 77.

⁴ - البيت للشاعر العربي المخضرم خويلد بن خالد، المشهور بأبي ذؤيب الهذلي، وهو البيت السادس عشر من قصيدته العينية التي يفتتحها بقوله:

أمن المنون وريبها تتوجع
والدهر ليس بمعتبٍ من يجزغ